مركزية الأمثال الشعبية في الثقافة الإفريقية

د. آدم بمبا
جامعة إفريقيا الإسلامية UMA، أبيدجان

للأمثال الشعبية مكانةٌ مركزية في البناء الثقافي والمعرفي بالمجتمعات الإفريقية قديمها وحديثها، وهي تتصدَّر سائر الأشكال الشعبية للأدب، من أساطير، وحكايات وقصص، وملاحم، وألغاز، وأغانٍ؛ لوجود المثَل- وجوداً ضرورياً- في تشكيل تلك الأنواع الأدبية.

ونستأنسُ هنا بتعريف الباحث ولفْغانْغ للمثَل بأنه: «جملةٌ قصيرة، مألوفة عادةً في المجتمع، تحوي حِكَماً وحقائق وقِيَماً ورؤًى شعبية، بأسلوب رمزيٍّ، تنتقل من جيلٍ لآخر»[١]. وهو تعريفٌ يحتوي على خمس خصائص أساسية للمثَل، ولا يبعُدُ أنْ يكون تكراراً وتناصّاً للحدود والخصائص التي ذكرها علماء العربية للمثَل، وهي: إيجاز اللَّفظ، وقِصَر العبارة، وإصابة المعنى بدقَّة، وإطالة المغزى، وحسن التشبيه[٢].

في هذا السياق؛ فإنَّ استقصاء مصطلح «مَثَل» في اللغات الإفريقية غالباً ما يكشف لنا عن رؤًى عميقة حول إدراك الثقافات الإفريقية المختلفة لهذه المركزيةً التي تضطَلع بها الأمثال الشعبية في بنية الفكر الإفريقي، وعن طبيعتها وخصائصها الدقيقة.

على سبيل المثال: يُطلَق على المثَل عند مجموعة بوليسا Bulisa في غانا: yam-wamagsima وهو مركَّب، يدلُّ جزْؤُه الأوَّل على: (حكمة، منطق، ذكاء، علم)، والجزء الآخر: (إلغاز، ترميز، إخفاء)[٣]. فالمَثل بهذا المفهوم: كلامٌ يحمل معنًى في غاية الإصابة، ولكن بطريقة خفية غير مباشرة، يحتاج فهمُهُ إلى ذكاء وطول نظر. وتَرِد الإشارة غالباً في لغة كيكونغو إلى المثَل بالجمع: bingana، ومفردها: ngana/kingana، وتعني: (حكمة، أنموذج، عميق، لغز)[٤]. ويردُ المعنى نفسه عند إيبو جنوبيَّ نيجيريا بـ ilu، ويعني: (الكلام العميق).

بالمِثْل؛ يُطلَق على المَثَل عند فولْفُلْدي (فولاته): balndol, balndi، والفعل منه walna، ويعني: (الاقتراب من الشيء)، فههنا إشارة إلى أنَّ ضرب المثَل إنَّما هو تقريبٌ للمعنى المراد، وليس المثَل نفسه الغاية المعنوية من الكلام، وإنَّما هو وسيلة لتقريب البعيد[٥]. وفي لغة وُلُوف السنغال: Léebu، المعنى نفسه، أي: حديثٌ رمزيّ غير مباشر.

كذلك؛ فإنَّ تسمية المثَل بلغة هوسا تسميةٌ رمزية؛ إذ يُطلَق عليه: karin-màganà[٦]، يعني الجزء الأخير: (كلام، حديث، خطاب، قول)، و«كاري»: (لفَّة الثوب أو الورق)؛ فالمعنى العامُّ لكلمة «كارينْ مغانا»: (الكلام الملفوف) folded speech[٧]، أو (الكلام المحجَّب) veiled speech[٨]، أو (الملتَوي) twisted words[٩]، إشارةً إلى أنَّ المثَل كلامٌ ذو معنى مستور، يُحتاج في فهمه إلى نشر غلافه؛ للوقوف على حقيقته وتفسير رموزه ومعانيه المحجَّبة عمداً[١٠].

أيضاً؛ يُطلَق على المثَل بلغة أكانْ في غانا: abe-buo، ويعني: (جذع، شجرة)، ويعني buo: (رسالة، رمز)، وهنا ترميزٌ إلى كَون المثَل بمثابة قطعة فنية منحوتة تبثُّ رسالةً خاصَّة، وترمز إلى معنى مضمَّن يدركُهُ أهلُ البصيرة.

بناءً على تلك النماذج؛ يتأكَّد أنَّ بالثقافات الإفريقية رؤيةً واضحةً لطبيعة المَثَل باعتباره كلاماً غير مباشر، له معنًى عميقٌ يستلزم طول نظر وتفكيكاً للكلام من أجل الوصول إلى هذا المعنى العميق؛ لذلك غالباً ما تأتي المصطلحات الدالة على المثَل واشتقاقاته في اللغات الإفريقية مركَّبة، أو بالجمع للإشارة إلى الخاصية الحيوية للمَثَل، وأنَّه ليس مجرَّد تعبير لغويّ، وإنَّما هو وعاءٌ حيٌّ للفلسفة، والتاريخ، والأخلاق والقِيَم، والخبرات والمعارف المختلفة.

هذا؛ وعلى الرغم من مركزية الأمثال ووضوح مفهومها في الثقافات الإفريقية، وما يضطلع به المثَل من وظائفَ حضارية كثيرة؛ فإنَّ واقع المثَل في المجتمعات الإفريقية

---

(١) Wolfganga Mieder. 2004. Proverb: A Handbook Bloobury Acadamic. p.1.

(٢) ينظر: ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، (٢٧٩-٢٨٠).

(٣) Moon J. Walter. 2009. African Proverbs reveal Christianity in Culture. Pickwick Pub., p.13-14.

(٤) UNESCO. 1979. Political Aspects, p.82.

(٥) Mukoshy, I. A. A Fulfulde-English dictionary, 534.

(٦) Paul Newman. 2007. A Hausa-English Dictionary, Yale University Press.

(٧) Beverly, Blow Mack. 2004. Muslim Women Sing: Hausa Polpular Songs. Indiana Unv. Press, p.64.

(٨) Furnis Graham. 1996. Poetry Prose and Popular Culture Hausa, Smithsonian. p.71.

(٩) Philip M. Peek & Kwesi Y. 2009. African Folklore: An Encyclopedia. Routledgde. p.145.

(١٠) Patryk, Zajac. 2021. Functions of Hausa Proverbs in Political Discourse. Hemispheres, N.26, p.36.

الحديثــة لا يكادُ يترجمُ هذه المكانــة للمثَل. كما أنَّ المثَل على الرغم من وفْرَة نماذجه في الثقافات الإفريقية مُعرَّضٌ للضياع بفعل القطيعة بين كبار الســنّ وبين الشــباب، وقد يكون ذلك نتيجةً للتغيُّرات الاجتماعية السريعة، والتحوُّلات الاقتصاديــة والثقافية العميقة التي طــرأت على التقاليد الثقافية بإفريقيــا، وقبل ذلك كلِّه تهميشُ الثقافة الإفريقية في النظام التعليمي الغربي الموروث، والهجمة الاستعمارية التي اســتهْدَفَت جملة البُنــى الثقافية بإفريقيا بالمســخ والتشــويه... كلُّ ذلــك تحدياتٌ وعقباتٌ فــي وجه الأمثال الشــعبية في إفريقيا تعوقها عن أنْ تتَبوَّأ مكانتها الطبيعية في المجتمع.

من هذا المنطلق؛ تأتي الدراسة الحالية لمناقشة بعض تلك المحاور؛ باستعراض نماذج من الأمثال الإفريقية انطلاقاً من المدخــل الثقافــي Social Approach، والمدخل الثقافي يُعدّ من الأبعاد الحاسمة في دراسة الأمثال الشعبية في إفريقيا، فهو يوفر سياقاً لفهم كيفية تشكُّل هذه الأمثال وتطورهــا، وكيف تعكــس القيم والمعتقدات والســلوكيات الثقافية للمجتمعات. وهو أحدُ المداخل الســبعة الأساسية التي حدَّدها الباحثُ هونيك لدراســة الأمثال، هي: المدخل المعرفيُّ Cognitive Approach، والديني Religious Approach، والتطبيقــي Practical Approach، والشــكلي Structural Approach، والأدبي Literary Approach، والذاتي Personal Approach[1].

عليه؛ تقف هذه الدراسة عند أهمية المثل في المجتمع الإفريقي، ووظائفه المتعددة، ورؤاهُ الفلسفية، وفاعليَّته في تأكيد الهوية الإفريقية في وجه الهجمة الاستعمارية.

وسيتم تناول ذلك من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: أهمية المثل في السياق الإفريقي.

المحور الثاني: وظائف المثل في السياق الإفريقي.

المحور الثالث: الرؤية الفلسفية في الأمثال الإفريقية.

المحور الرابع: التأثير الكولونيالي في المثل الإفريقي.

المحور الخامس: إزالة الكولونيالية عن المثل الإفريقي.

المحور الأول: أهمية المثل في السياق الإفريقي:

إذا كانت اللغات الإفريقية قد اشــتقَّت مفردات عميقة الدلالة على طبيعــة المثَل وحقيقته، فإنَّ تعامُلَ المجتمعات الإفريقية مع الأمثــال في الحياة اليوميــة، وفي المواقف الخطابيــة، يُعــزِّز تلك المكانــة التي عبَّــرت عنها اللغات الإفريقية في اشــتقاقها مصطلحاتٍ عميقــة الدلالة على طبيعة المثَل.

وقبل ذلــك؛ فإنَّ أهميــة الأمثال تظهر في الســياق الإفريقي وفي سياق المجتمعات التي توصَفُ بـ«غير كتابية» Non-Literate Societies، فــي قيــام الأمثــال بمهمَّة اختزالية واختزانية للمعارف والمعتقدات والعادات والخبرات الشــعبية بإفريقيا، فهي ليستْ مجرَّد تعبيرات لغوية مميَّزة، وإنَّما تُعتبر أدواتٍ فلســفية مُركَّزة تُجسِّــد الرؤى المركزية حول الواقع الطبيعــي والديني، والاجتماعي والسياســي، والأخلاقي والجمالي، وغيــر ذلك من العناصر المكوِّنة لما يُعرف بالفلسفة العرقية Ethno-Philosophy بإفريقيا وبغيرهــا من المجتمعات. فكأنَّ الأمثال- وهي كذلك- تقوم فــي المجتمعات الإفريقية (القديمة خاصَّــةً) مقام الكتابة والتدوين فــي المجتمعات التي عرفت أنظمةً كتابية لضبط معارفها وتاريخها ونقلها عبر الأجيال المتعاقبة.

وفوق ذلك؛ فإنَّ أهمية المثَل في المجتمعات الإفريقية تبرز في أنَّه البؤرة الذَّرية التي تنشــأ عنها ســائر مكوِّنات رؤيا العالم عند الأفارقة، وبحســب تعبير الباحثَيْن: بنفيلد و دورو؛ فــإنَّ الأمثال في المجتمعات الشــفاهية بإفريقيا، خاصَّةً، ليست انعكاساً للحياة، وإنَّما هي جزءٌ من الحياة[2].

هــذا؛ وقد عبَّر باحثون آخرون كُثُــر عن هذا المعنى، وعن هذه المركزية للمَثَل في الثقافة الإفريقية، حين وصَفَه بعضُهــم بأنه: «إنجيل إفريقيا»، وهو وصفٌ مقبولٌ في إطار الثقافــة الغَرْبية التي يُعبِّر معظم الكُتاب والباحثين ضمْنَها، ومثــل ذلك وَصْــف الباحثــة آنْ ن. و. A. Nasimyu-Wasike المثــل الإفريقي بأنــه: Unwriten Bible of

(١) Honeck Richard P. 1997. A Proverb in Mind: The Cognitive Science of Proverbial Wit and Wisdom. In: Moon W. Jay. 2005. Using Proverbs to Contextualize Christianity in the Bulisa Culture of Ghana, West Africa, Faculty of E. Stanley Jones, School of World Mission and Evangelism, PhD. 43.

(٢) Penfield, J. & Duru, M. 1988. Proverbs: Metaphors that teach. Anthropological Quarterly, 61(3), July: 119–128.

the African People «إنجيل الأفارقة غير المكتوب»[١]، فالأمثال هي بمثابة إطارات نظرية مضغوطة للمبادئ الأساسية، والرؤى والتوجُّهات التي تراكَمت في المجتمع الإفريقي عبر الأجيال، وشكَّلت- بناءً على ذلك- رؤية الأفارقة عن الكون والحياة والإله، معرفة هذه المدوَّنة الثقافية ضرورية لكلِّ فرد؛ لضمان عضويَّته وانخراطه في المجتمع، وكثيراً ما يُقاسُ قَدْرُ الفرد ونجابتُهُ ورجاحَةُ عقله بمدى معرفته بالأمثال، ففي مَثَل يوربا قولهم: òrò tí àgbà bá so, tí omode bá yè kó máa fi ògbón se أي: (الحدَثُ الذَّكي مَنْ يستَرشِدُ بحِكَم المسنِّين).

هذا؛ وتتبعُ ضرورةُ تحقُّق هذا المعيار المعرفي للمثَل في الشخصية في كون المثل- كما سبقت الإشارة إليه- مُكوِّناً ضرورياً في جميع مناشط الحياة: في الطقوس اليومية، وفي المحاورات، وفي التعامُل مع الأفراد، فمِنَ الصعب تحقيق التواصُل اليومي والتفاهُم في المجتمع الإفريقي التقليدي دون توظيف نشط للأمثال.

ولعلَّ سبب هذا الاعتبار البالغ للمثَل في المجتمعات الإفريقية أنَّه يُعدُّ «ميراثاً» تركه الأجدادُ للخَلَف، وكثيراً ما تُصدَّرُ الأمثال بقولهم: (قال أسلافنا كذا وكذا...)، وتوصف في لغة باكونغو بأنها: bingànà bisesa bambuta، أي: (أمثالٌ تركها لنا الأجداد)[٢]. وتبدأ معظم أمثال هَوْسا بقولهم: (كما تقول هَوْسا) ...Hausawa dai naa ceewaa، وفي لغة يُوربا نيجيريا يُطلَقُ على المثَل: Owe، وهي مشتقَّة من عبارة àgbá òró، أي: (أقوال كبار السنّ)، ومثلُهُ لدى مجموعات زولو؛ إذْ تُطلَقُ على المثَل: Izaga، أي: (أقوال السَّلف). وكلُّ ذلك يعطي المثَل قوَّةً إقناعية، وسُلطةً مرجعية في المواقف التي يُطلَق فيها المثَل، ويُعزِّز من قوَّة تأثير المثَل[٣].

أيضاً؛ تظهر تلك الأهمية الخاصَّة للمثَل في المجتمع الإفريقي في إشارة بعض الأمثال أنفسها إلى أهمية المثَل في الخطاب والتواصُل الوظيفي، ففي مثَل شعب إيبو بنيجيريا قولهم: ilú kà n'eji èri uka، أي: (الأمثال كزيت النخيل التي تؤكل بها الكَلِم). وفي المعنى نفسه تقول زُولو: (بدون أمثال؛ تغدو اللغة هيكلاً عظمياً بلا لحم، أو جسداً بلا روح)، ومثله لدى شعب كامْباتا بإثيوبيا قولهم: (يغدو الكلام جميلاً حين يتخلَّله المثَل). تقول أكانْ: Oba nyansafo yebuno be na yenka no asem (خاطبُ العاقل بالأمثال، وليس بالكلام الظَّاهر)[٤]. وتصفُ مجموعات يوربا المَثَل بأنه: (حصانٌ رشيقٌ يحمل المرء إلى الحقائق)[٥]. كما يوصَفُ المثل في اللغة الأمهرية بأنه (يختصِرُ الطريق) mammaaksi dubbii gabaabsa[٦].

هذا؛ ويتعدَّى توظيف المثل في بعض المجتمعات الإفريقية إطارَهُ اللَّفظي الشفوي إلى المرئي، وتلك- مثلاً- حالُ مجموعات أكانْ في كوت ديفوار مع الأمثال، فقد نبّه الباحث دومُويتز على تأثير المثَل في فنِّ النحت والنقش عند مجموعة أكانْ، ومما أشار إليه وجود «أقمشة مَثَلية»، وهي أقمشةٌ منسوجة بنقوش معيَّنة لها مدلولات مَثَلية، ترتديها المرأة في مناسبات مختلفة؛ لتبثَّ إلى زوجها أو إلى «ضَرائرها»، أو إلى المجتمع بأسْره، حالتها أو مزاجها، ويُعاملها المجتمع أو الشخص المخاطَب بحسب نوع اللِّباس طبْقاً لما يُلزمُه المَثَلُ من ردَّة فعل[٧]. فعادات اللِّباس وإنْ كانت نوعاً من الخطاب اليومي في كلِّ مجتمع؛ فإنَّ مجتمع أكانْ يتميَّز في ذلك بتوظيف أمثاله الشعبية توظيفاً ذكيّاً في فنِّ النسيج، وفي تخيُّر المناسبات المحدَّدة للُبْس القماش المناسب فيها.

كذلك؛ فإنَّ بمعظم مجتمعات إفريقيا مايُعرف بالطبل الناطق، ويُسمَّى «غونْغْ غونْغ» عند أكانْ، ويُضَرب لإذاعة

---

(١) Healey, J. & Syebertz D. 1996. Toward an African Narrative Theology, Nairobi: Paulines Publications Africa, p.29.

(٢) Maalu-Bungi C. 2006. Litterature Orale Africaine, Peter Lang. p.144.

(٣) Boateng, F. 1983. African traditional education. Journal of Black Studies, 13(3), March: 321–336.

(٤) George J. Sefa Dei, et al. 2018. African Proverbs as Epistemologies of Decolonization. NY: Peter Lang Pub., p.11.

(٥) Tiko, Iyamu. 2021. The Role of African Proverbs in Advancing Information Systems Research. The Af. J. of Information System, vol.13 ((4), pp.476-492, (476.

(٦) Ibid., p.485.

(٧) Domowitz, S. 1992. Wearing proverbs: Anyi names for printed factory cloth. African Arts, 25(3), July: 82–87.

الأخبـــار من قدوم ضيف، أو وفاة، أو دعوة إلى اجتماع عند الزعيـــم، أو غير ذلك، وحين تكون دقّـــاتُ هذا الطبل لفئة معَيَّنة دون غيرها (شـــيوخ البلدة مثلاً)؛ فـــإنَّ دقّاتها تكونُ عبـــارةً عن أمثال معيَّنـــة لا يفهمها إلا أصحـــاب المعرفة العميقة والخبرة[١].

بالإجمال؛ يكتسب المثَل مركزيّته في الثقافة الإفريقية لعدَّة اعتبارات وحقائق كامنة فيه، منها:

❖ المثل وسيلةٌ مهمَّة في الثقافات الإفريقية الشفاهية لتلقيـــن القيَم وتكوين الـــرؤى وحفظهـــا. وبتعبير الباحث ســـاموفار وزملائه Samovar et al.: «فإنَّنا نتعلَّم ثقافتنا من خلال الأمثال»[٢]. ويؤكِّد الباحث ماويري م. ذلك بالقول: إنَّ المثَل.. «رموزٌ أو معالم طريق للثقافة الشفاهية»[٣].

❖ ليس المثل مجرَّد ميراث للأســـلاف، أو مســـتَوْدَع للخبـــرات الماضية، وإنَّما يســـتهدف إعـــادة بناء الماضي وتركيبـــه. كما يســـتهدف الحاضر من أجـــل تأكيد ملاءمة الثقافـــة والتاريـــخ لفُهُوم الناس عـــن الحيـــاة والتقاليد، ومساعدتهم في الإعداد للمستقبل والدخول فيه بثقة[٤].

❖ الأمثالُ وســـيلةٌ تربوية مهمّة في الثقافات الإفريقية للاندماج الاجتماعي؛ إذ تقوم بمهمّة تأهيل الفرد للانسجام مـــع مجتمعه، وبقدر معرفة الفرد للأمثال وحســـن توظيفه إيَّاها في الســـياق المناســـب؛ يقوى انخراطه في المجتمع، وكمـــا يوضِّحه الباحث أكولو فإنَّ حفظ المثل واســـتخدامه في الكلام لا يكفي، وإنما يلزم حُســـن توظيفه في ســـياقه الخطابي المناسب؛ لأنَّ السياق يقوم بأثرٍ محوريٍّ في تفسير المثَل وقبوله[٥].

يتبيَّنُ فيما مضى أنَّ الأمثال الشعبية هي مُكوِّنٌ أساسيٌّ في البناء الفكـــري للمجتمعات الإفريقيـــة؛ إذْ تُمثِّل البنية العميقة التي تُشكِّل رؤيا العالَم لدى الأفارقة، وتُكوِّن المبادئ الأساســـية، والرؤى والتوجهات التـــي تراكَمَت في المجتمع الإفريقي عبر الأجيال. كمـــا تبيَّن أنَّ المجتمعات الإفريقية تولي المثَل اهتماماً كبيراً، وأنَّ له تأثيراً عميقاً على الأفراد، وسُلطةً مرجعية في مواقف الحياة، وفي ترسيخ المعتقدات، وتكريس العادات والتقاليد الموروثة.

المحور الثاني: وظائف المثل في السياق الإفريقي:

يتبوَّأ المثَل في المجتمعـــات الإفريقية مكانته الفريدة بما يقـــوم به من وظائف متعددة في جميـــع ميادين الحياة الجماعيـــة والفردية، فهو وعـــاءٌ للقيَم والمعـــارف، وأداةٌ لفهم الظواهر الطبيعية والممارســـات الاجتماعية، ولحفظ التاريـــخ، وتحاوُر الأجيال، وحلِّ النزاعـــات وتحقيق الوئام، وتعزيز الهوية. وهنا استعراضٌ لبعض تلك الوظائف.

١- الأمثال مستودعا للمعرفة الجماعية:

إنَّ أبرز ســـمة للمثَـــل الإفريقي كونُه مُســـتَوْدعاً أميناً للمعارف والعلوم الشـــعبية، وقيامُه بنقل الحكمة الجماعية عبر الأجيال، فهو ليس مجرَّد عبارات مختصرة تُســـتَخدم في الخطاب اليومي، وإنَّما أدواتٌ تحمل معاني عميقةً تُشكِّل أُسس التفكير والفهم. والأمثال بهذه الوظيفة الإبداعية، تُعدّ أدوات تعليمية في تعزيز الهوية الثقافية، كما تُعدّ أداةَ تمكين للأفراد في ســـياق إزالة الاستعمار، والكشـــف عن النُّظم المعرفية الأصيلة التي همَّشتها السرديات الاستعمارية[٦].

٢- تشكيل الرؤى الفلسفية عن الكون والحياة:

تقوم الأمثال فـــي المجتمع الإفريقي بتشـــكيل الرؤى الفلســـفية حول القيم والمعارف، وتفسير الحقائق الكونية، وفهم الطبائع الإنسانية، وعلاقة الإنسان ببيئته وبالآخرين.

٣- أداة تعليمية مشتركة:

تستخدم المجتمعات الإفريقية الأمثال بوصفها أدوات تعليمية غير رسمية لنقل القيم الاجتماعية، وتلقين المعايير الأخلاقية، وهي وســـيلةٌ صالحةٌ لجميـــع الأعمار، ولجميع

---

(١) McDonnell J. 2012. Re-Theorizing the Integral Link between Culture and Development. (MA thesis). Ontario Institute for Studies in Education., p.45.

(٢) Larry A. Samovar. et al. 2017. Communication between Cultures. Cengage Learning. p.39.

(٣) Munyaradzi, Mawere. African Belief and Knowledge,

(٤) Na'Allah Abdul-Rasheed. 2010. African Discourse in Islam. Taylor & Francis. p.16.

(٥) Okolo B. 1985. An Analysis of Igbo Proverbs and Idioms. Kansas Working Papers, vol.10. pp.33-55.

(٦) Tata, E. 2023. Decolonizing african science: efforts, challenges, and future directions. International Journal of Science and Research Archive, 10(1), 823-833.

الظروف. تُقال للراشـــدين للتنبيه، أو التحذير، أو التشجيع، أو التوجيه في مواقف الحياة المختلفة. من الأمثال التعليمية قول بمبـــارا: jiri don, ji don, so don, yere don ka fisa nin bee ye، وترجمتهـــا الحرفيـــة: (أنْ تعـــرف الشـــجر، وأنْ تعرف البحر، وأنْ تعرف الخيل، لا معرفة مثل معرفة النفس)، أي: إنَّ معرفة الإنســـان لنفســـه أفضلُ من معرفته بتسلُّق الشجر، وإجادة السباحة، وركوب الخيل، فلا معرفة تعدل معرفة النفس[١].

ومـــن أمثـــال أكانْ: mushun dara ne baa ta a wora kuduru أي: (بالعَسَل العتيق يُصنَعُ الدواء الناجع)، وهو مثلٌ، وإنْ كان يُضرَبُ للتشـــجيع على الحصافة، ووضع الأمور في محلِّها، فإنَّه يُقدّم أيضاً خبرةً في الطِّب الشعبي[٢].

٤- أداة للحفاظ على التاريخ والهوية:

تُســـتخدَم الأمثـــال كأدوات لتوثيق التاريخ الشـــفوي، وتعزيز الهوية الثقافية، فهي تُعَبِّرُ عن تجارب تاريخية تعكس التحديات والنجاحات التي مرَّت بها المجتمعات الإفريقية. تقـــول مجموعة كافـــا المزارعة فـــي إثيوبيا فـــي المثَل: Kubbo aallegaata/ kafachoch kashoo aalle (لا حياة لكافا بلا غابة)[٣]، فهُوية شـــعب كافا وخبراتها مُؤطرةٌ بالغابة، وهذا المثَلُ يُجمِلُ تاريخ هذا الشعب في هذا الإطار.

ومن أمثال يوربـــا: Dugbe dugbe ki i fi eyin- in re sile، أي: (العنكبـــوت حاملـــة البيض لا تهجُرُ بيضها أبـــداً)، وهي نوعٌ من العناكب حين تضع بيضها فإنَّها تحمله معها في كل مكان، ويُضرَب للتنبيه على التمسُّـــك بالمبادئ والمثابرة في الأمور، وتحذير الشـــباب عادةً من التســـيُّب وانسلاخ الهوية[٤].

٥- الأمثال وسيلةً لتحاوُر الأجيال وترابطها:

تعمل الأمثال كوســـيطٍ فعَّال للحوار بين الأجيال، حيث يتمُّ نقلُ القيم الثقافية، والخبرات الحياتية من الجيل السابق للجيل اللاحق، وتلك عمليـــة ضرورية للحفاظ على الهوية، ومواجهة الاحتواء الثقافي[٥]. يقول كبارُ السنّ عادةً بمجتمع شـــونا: Kitey kwemidzimu kunayisa mvura pasina auchirira، أي: (كيـــف تهـــب أرواح الأســـلاف الأمطار، وأنتم لم تســـألوها ذلك؟)، تشـــجيعاً للشباب على الاختلاط بكبار السنّ وطلبِ الخبرات والمعارف منهم[٦].

٦- الأمثال أداة في حل النزاعات وبناء السلام:

تقوم الأمثـــال بمهمَّة معتبرة في إدارة النزاعات وحلّها، وفي تعزيز التماسُـــك المجتمعـــي، وعادةً توكَلُ مســـاعي الوســـاطة بيـــن الخصوم فـــي المجتمعـــات التقليدية إلى القوَّاليـــن الضالعين في الثقافة القوميـــة، يُطلَق عليهم بين مجموعة مانْدينغ مثلاً: «جالي»، ويَسْـــتخدمُ أولئك الأمثال والأســـاطير لتهدئة الخصوم، وحمل الأطـــراف المتنازعة على التفاهم، ويُكثرُون من الأمثـــال التي تُركِّز على الوحدة والمصالحة والأخوَّة.

مـــن أمثال بَمْبارا في هذا الســـياق قولهم: hali nin ni nen be kele، أي: (حتى الأسنانُ واللسان يتشاجران)، إشـــارةً إلى العضَّة اللاإرادية التي تقع أحياناً بين الأســـنان واللسان، فالخلافُ سُـــنَّة اجتماعية لابدَّ فيها من التسامح. ومـــن أمثالهـــم: benbali so, tombo so ، أي: (دارُ خـــلاف، دار خراب)، أو: (مهما عظُمَت البلدة؛ فإنَّ الخلافَ يُخْرِبها)[٧]. وفي المعنى نفســـه تقول باسوتو: motse ho aha oa morapeli، أي: (الخلافُ لا يبني قرية)[٨].

خلاصة القول: إنَّ للمثَل وظائفَ متعددةً في المجتمعات الإفريقيـــة لا يماثلُه في ذلك أيٌّ من الأنواع الأدبية الأخرى،

---

(١) Colman. Peter L. 1999. Bambara/Jula Proverbs as Mediators in the Communication of Meaning. (Phd. Diss). Trinity Evangelical Divinity School. iv., p.280.

(٢) McDonnell J. Re-Theorizing, Op. Cit., p.45.

(٣) Tesfaye D. & Mesfin W. 2014. The Socio-Cultural functions of Kafa proverbs. AJHC. Vol.6 ((6), pp.94-99, (96.

(٤) Yoruba Proverbs, p.114, Oyekan Owomoyela. 2005. Yoruba Proverbs, University of Nebraska.

(٥) Avoseh, M. 2012. Proverbs as theoretical frameworks for lifelong learning in indigenous african education. Adult Education Quarterly, 63(3), 236-250.

(٦) Masaka, D. & Tompson M. 2013. The Proverb: A Preserver of Shona Traditional Religion. JPAS, Vol.6 (5). p.138.

(٧) Kone Kassim. 1997. Bamana Verbal Art. (PhD diss). Department of Anthropology Indiana Unv., p.52.

(٨) Cf. Makali I. Mokitimi. 1997. The voice of the People: Proverbs of hte Basotho, Daystar Press, Ibadan.

وتشـمل تلك الوظائف جميـع ميادين الحيـاة الجماعية والفرديـة؛ ممَّا يجعل الأمثال أداةً لا غنًى عنها في المجتمع الإفريقي للاسـتمرار والتكيُّف مع الحياة. وفضلاً عن ذلك؛ المشاركة في مضْمَار الفلسفة العالمية بما يُحقِّق للإنسانية مزيداً من التقدُّم.

المحور الثالث: الرؤية الفلسفية في الأمثال الإفريقية:

نجد في الأمثال الإفريقية رُؤى عميقةً عن الإله والكَوْن والحياة، وعن العلاقات الإنسـانية والإخاء والتضامن، وعن السياسة الرشيدة، وعن الأخلاق والقيَم الاجتماعية، وقضايا البيئة والتنمية المسـتدامة، وغيرها من القضايا، التي قد نحسـبُها حديثة، أو أنها من بنات أفكار الغرب، وهي ليست كذلك.

وفـوق ذلك؛ فإنَّ الأمثـال الإفريقيـة تخطو خطوات أوسَـع برؤًى وأفكار تكشف ما في الفلسفة الغربية، وما في الطروحات الاستعمارية من مغالطات وقِصَر نظر، ولعلَّ تتبُّع بعض تلك الأمثال يُجلِّي هذا الواقع.

أ- الإيمان بخالق أعظم:

تكشـف الأمثالُ الإفريقية بـأنَّ المجتمعات الإفريقية تؤمن بوجود إله أعظم فوق كلِّ شيء، له صفاتٌ عليا مُطْلَقة، وتـردُّ بقوَّة على المزاعم الاسـتعمارية التي حاولت تجريد إفريقيا عن الفكر الديني.

ولدينـا شـهادةٌ قديمـةٌ للمـؤرِّخ المسـعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، حول مملكـة «وقليمي»، بجنوب إفريقيا الحاليـة، حين ذكر أنَّ اسـم الإلـه الخالـق عندهم هو: «ملكنجلو»، وتفسيره: «الربّ الكبير»، وأنَّ من صفاته عندهم: العدل المطلق بين الخلق، وأنَّ المَلك هو تجسـيدٌ للعدالة الإلهية؛ لذلك «متى جـارَ الملكُ عليهم في حُكْمه وحادَ عن الحـقِّ قتلوه، وحرموا عَقِبَه المُلْـك، ويزعمون أنَّه إذا فعل ذلك فَقَدْ بطُلَ أن يكون ابنَ الرَّبِّ الذي هو مَلِكُ السـماوات والأرض»[1].

عليه؛ يمكن استعراضُ عددٍ من الأمثال الإفريقية، وما تَوارَدَ فيها من رؤًى حول الإله الخالق:

أولا: العدالة المطلقة:

تكشـف أمثالٌ كثيرةٌ في المجتمع الإفريقي عن إيمان المجتمع بعدالة الإله المطلقة بين عباده، من الأمثال في هذا المعنى قول سـواحلي: mvua hainyeshei mmoja، أي: (المطر لا ينزل على فرد دون غيره)، إشارةً إلى أنَّ رحمة الله وعطاءه يشـمل الجميع[2]. ومن أمثال مانْدينغ الطريفة قولهم: kɔnɔ den satɔla b'a fɔ ko ale ma dunya jabɔ, mɛn kili la ma beleke ni do[3]، أي: (إذا اشـتكى الفرخ عند موته أنَّه لم يأخذ حظَّه مـن الدُّنيا، فما بالُ البيضة المقليـة؟). ومن أمثال ولوف: Alla ye daa mɛn bɔ, a mɛ a tokuluńo tu، أي: (ليـس كلٌّ من تكرهُهُم يهلكهم الله)[4]، فعطاء الإله ليس محظوراً عن أحد، إنَّما هو ممدودٌ لجميع خلقه.

ثانيا: العناية الربانية:

تؤمنُ الرؤية الإفريقية بأنَّ العناية الربانية موجودة، وأنَّ المولى يتولَّى كلَّ مخلوق في كل حال، فإذا قدَّر الله للمخلوق وضعاً معيَّناً فإنَّه يُعنى به في هذا الوضع عنايةً دقيقة. ومن الأمثال الواردة في هذا المعنى قولُ مادينْكا (غامْبيا): Alla ye daa mɛn bɔ, a mɛ a tokuluńo tu[5]، أي: (لا يفتـح الله فماً ويدَعهُ فارغاً)[6]، فكلُّ مخلوق ذي فم يتولَّى الله إطعامه، وإذا سـلب الله المخلوق شـيئاً عوَّضه بغيـره. وفي هذا المعنى يقول مادينـغ: sen tɛ saa la, nga a ka teli sen naani fɛw ye، أي: (ليسـت للحيّة أقدامٌ، ولكنها أسْرَعُ من ذوات الأربع)[7]. وعن الحية أيضاً تقول مادينْكا: sà mɛ dinka sin, bari a din mɛ i la banta، أي: (الحيـة لا تحفر، ولكنَّ صغيرها لا يبيت في الخلاء)[8].

كذلـك؛ فـإنَّ المخلوقات التـي تعيش علـى أقوات

(١) المسعودي، مروج الذهب، (١/١٩٩).

(٢) Kimilike. Poverty in the Book of Proverbs, Op. Cit., p.112.

(٣) Mamadi Jane, Mande Santalu, p.44.

(٤) Burton, Richard F. Wit and Wisdom of Africa, Op. Cit. p.36.

(٥) Gerard Meyer. 1995. Proberves Malinke, Paris: Cilf, p.151.

(٦) Cheik Hamidou Kane. 1995. Les Gardiens du Temple, Stock. p.182.

(٧) Niane, Djibril Tamsir. 2000. Soundiata. Paris: Presence Africaine. p.48.

(٨) Gerard Meyer. Op. Cit. p.39.

مخصوصة يهيئ الله لها أرزاقها بلا شك، ويُعبِّر ماندينغ عن هذا المعنى بقولهم: k'Allah to san fɛ, dua tɛ bin yimi، أي: (ما دام الله في السَّماء؛ فلن يأكل النسر عشباً)، ويؤكد كانوري ذلك بقولهم: kam kana kuguibe ntsetsoma bago, sai Allah، أي: (لا أحد يُشبِعُ النُّسور إلا الله)[1]، فما مِن دابَّةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها.

إنَّ هذه الأمثال وغيرها لا تُدحِضُ الفكر الغربيَّ، الذي يتنكَّرُ للإيمان ولوجود قوَّة إلهية قاهرة فحسب، وإنَّما تخطو فوق ذلك لترسم معالم الإيمان رسماً دقيقاً يدعونا لمراجعة ما زعمه الاستعماريون من أنَّ إفريقيا كانت ظلاماً، أو صفحة بيضاء tabula rasa، قبل الحضور الاستعماري بها.

ب- نظرية المعرفة:

تضع أمثالٌ كثيرةٌ أفكاراً عميقة حول المعرفة: طبيعتها، وطرق تحصيلها، وفوائدها... من ذلك قول باكفا في يوغندا: Obwengye tibwomwe، أي: (المعرفة ملكٌ للجميع)، وفي المثَل عند مجموعة شونا أنَّ: (الحكمة مثل شجرة باوْباب، لا يمكنُ أنْ تُطوِّقَها بذراعَيْك)، فالمعرفة أوْسَعُ أن يحتويَها فردٌ أو أُمَّة دون غيرها. والبحث والسؤال من أهمّ مفاتيح المعرفة، وفي ذلك تقول إيبو: Onye ajuju adighi efu uzo، ومثله عند ماندينغ: nyinigali baga te fili، أي: (ما ضلَّ مَنْ سأل).

ج- القيم الاجتماعية والثقافية:

تحثُّ أمثالٌ كثيرة على القيَم الاجتماعية النبيلة وتُمجِّدها، من ذلك قيمة التعاون والتضامن والتكافل الاجتماعي. في هذا المعنى ورد مثلٌ عند يوربا أنَّ (شجرة واحدة لا تُؤلِّف غابة)، إشارةً إلى ضرورة العمل الجماعي، وأنَّ الإنسان لا يمكنه تحقيق النجاح بمفرده. وتقول مجموعة أكانْ: Nsa ko nsa nware nanso nsa ko nsa، أي: (اليدُ الواحدةُ لا تغسلُ نفسَها، وإنَّما تغسلُ اليدَ اليدُ الأخرى). وفي الترويج للعمل الجماعي لتحقيق النجاح المستدام تقول شونا: (إذا أردتَ أن تذهب سريعاً فانطَلِقْ وحدك، وإذا أردتَ أن تذهب بعيداً فانْطَلِقْ مع الآخرين).

وفي التشجيع على التضحية وفعل الخير؛ تقول مجموعة كيمبو Kiembu في كينيا: Murimi tike murii، أي: (العمّال قلَّة، والمستفيدون كُثُر). وفي التحذير من التواكل والبطالة تقول وُلوف: Ya Allah, Ya Allah, bey sa tol، أي: (قبل أن تقول: يا الله يا الله، أُحرثْ حقْلَك!). ومن أمثال إيبو قولهم: Anu buzo n'anwu mmiri oma، أي: (إنَّ الحيوان الذي يسبق إلى الحوض؛ يشربُ أنقى ماء)، ويمكن توظيفُ هذا المثل في تلقين قيمة الالتزام بالوقت، والمبادرة بالأخذ بزمام الأمور. وفي المعنى نفسه تقول ولوف أيضاً: Ku dugg bëy, mu jëk njariñu، أي: (مَنْ يدخل الحظيرة أولاً؛ يُمسك بأفضل شاة).

د- القيادة والحوكمة الرشيدة:

تُشيدُ أمثالٌ إفريقية كثيرة بالحكم الرشيد، وتعطي توجيهات للقيادة الناجحة، من ذلك قول صوتو: morena ke morena ka batho، أي: (الملك ملكٌ بشعبه)[2]، ومثله في المثَل عند ولوف قولهم: bour bou amouly mitte don done bour: (ليس ملكاً؛ ملكٌ بلا شعب)، وفي المثَل أيضاً عند مجموعات كاوْندي Kaonde قولهم: kizanza kyakosela mashiki، أي: (الخيمة قويةٌ بأعمدتها)[3]. فالزعيم مهما كانت مكانته فإنَّ قوَّته وبقاءه مرهونٌ بمدى تعاونه مع شعبه، وتضامُنهم معه، ولا يتحقَّق هذا التضامُن إلا إذا كان الزعيمُ مثاليّاً في العدل والحكم، تقول أكانْ: Wo nni dom a yeko tia wo، (مهزومٌ في الحرب مَن ليس له جيش)[4].

هـ- موضوعات متفرقة:

تكادُ الأمثال الإفريقية لا تدَعُ مجالاً في الحياة إلا وتطرَّقت إليه، ومن الصعب تتبُّع جميع تلك المجالات، وقد حاولت بعض الدراسات الحديثة رصد الكثير من المجالات الحديثة، وجمع الأمثال الإفريقية ورقْمَنتها وتصنيفها طبقاً لتلك الموضوعات، مثل: إدارة الأعمال، وإدارة الموارد، ومهارات القيادة، والتنمية البشرية، والصحة، وحماية البيئة،

(١) Burton, Richard F. Wit and Wisdom of Africa, Op. Cit. p.49.

(٢) Kondlo Kwandiwe (ed), 2014. Perspectives on Thought Leadership for Africa's Renewal. Africa Institute. p.66.

(٣) Lechion Kamilike, Poverty in the Book of Proverbs, p.261.

(٤) George J. Sefa Dei, et al. African Proverbs, Op., Cit., p.70.

والحوكمة الراشدة، وغيرها من الموضوعات[١]، على سبيل المثال:

- قبول الاختلافات والتعددية:

في المثل عنـد أكانْ قولهـم: Nwura deda mu ahorow nanso ne nyinaaa ye nwura[٢]، أي: (الأعشـاب أنواع؛ لكنَّها جميعاً عُشب)، وهذا المثل يشجّع الاختلافـات بجميع أبعادها العرقية والدينية والفكرية، وأنَّ ذلك لا يؤثّر في جوهر الأشـياء أو الأفراد، وهنا فإنَّ ما قام عليه الفكر الاسـتعماري من محاولة تغيير لطبائع الشعوب وتقاليدهـم، لتوافق الأنمـوذج الغربي، يُعَدّ عنفـاً ثقافياً وهمجية في حقّ قانون الاختلاف الطبيعي.

- احترام الفروق الفردية:

مـن أمثال أكانْ أيضاً: wansena se onibi kuraa nso oposa ne nsem، أي: (قالـت الذبابـة: وإنْ كنتُ مُعدَمةً؛ فإنَّ بإمكاني تفريكُ يدَي!)، يمكن تفسير هذا المثل بأنَّ كلَّ إنسـان، وكلَّ شيءٍ في الحياة له قيمة، إنْ عجز عن شـيء؛ قَدَرَ على شـيءٍ آخر، وتلك رؤيةٌ معاكسة للمقاربة الاسـتعمارية الرأسـمالية التي تُقيّم الفـرد والمجموعات بالناتج المادي.

مما مضى يتبين: أن للأمثال الإفريقية فلسـفةً خاصة عن الإله والكَوْن والحيـاة، وأن ما تقدّمُه من مفاتيح دقيقة حول الطبيعة والحياة والبشـر، وما ترسمه من معالم القيَم والأخلاق النبيلة، من عدالة، وتعـاون، وقبول اختلافات... إلخ، هـذه الرؤى العميقة في الأمثـال الإفريقية تفنِّدُ بقوَّة كثيراً من الصُّوَر النمطية التي حاولت القوى الاسـتعمارية رسمها عن شعوب القارة.

المحور الرابع: التأثير الكولونيالي في المثل الإفريقي:

لقد كانت الأمثال الشـعبية بإفريقيا بمثابة صفعة في وجه الجبروت الاسـتعماري الذي زعم أنَّ إفريقيا لا تاريخ لها ولا ثقافة، وإنمـا، بتعبير المؤرخ البريطاني هوغ تريفور مثلاً: «لا يوجد بها سـوى تاريخ أوروبـا، وما دون ذلك فهو عامَّة ظلام»[٣]!.

فهذه الرؤية المشـبَّعة بمركزية أوروبية متطرِّفة، والتي تحتكـر الحقيقة في المنهـج الأوروبي للمعرفـة، وترمي بعُـرض الحائط ما عداها من المناهج والمعارف، وبخاصة الإفريقية، قد وجـدَتْ في الأمثال الإفريقية تفنيداً صارخاً ضدَّ مزاعمها الجوفاء[٤].

لذلك؛ لم يكن غريباً أن تتكَبَّ الدراسـات الاستعمارية الأولـى بإفريقيا علـى الأمثال: جمْعاً، وترجمـةً، وتحليلاً، وشـارك في ذلك الأنثروبولوجيون، والمؤرخون واللغويون، ورجال الكنيسـة، وقـد انطلقت دراسـاتُ أولئك في إطار المنهجيـة التي اتبعهـا الأوروبيون حيـالَ جميع المظاهر الحضاريـة بإفريقيا: مادية أو معْنَويـة، وهو إنكارُ أصولها الإفريقية، أو تفسـيرها في إطار منظارٍ أوروبيٍّ بحتٍ يؤدي إلى مَسْخها وتحريفها.

عليه؛ فـإنَّ الأوروبيين حيـن فوجئوا بوَفْـرَة الأمثال الإفريقية، وبعُمق رؤاها الفلسـفية، لم يكن منهم إلا محاولةُ مسخ تلك الأمثال وإخضاعها لتفسـيراتهم وأحكامهم التي تنْزع عن تلك الأمثال عمقَها الفلسفي.

تحديداً؛ فـإنَّ رجال الكنيسـة هم الذيـن تَوَلَّوا كِبْر الأعمال البحثية حول الأمثال الإفريقية، وكانت مقاربتهم في دراستها مقاربةً دينية ضمن ما يُعرف في الأدبيات التنصيرية بإسـتراتيجية Contextualization (السـياقية)، وهي تكييف المسيحية للطابع المحلي في كل مكان[٥]، وقد تجسَّد هذا التكييف في دراسـة الأمثال الإفريقية في تفسـيرها انطلاقاً من نصوص «الكتاب المقدّس» أو العكس.

في هذا السـياق؛ بذَلَ الاستعماريون جهوداً مُضْنيةً في جمع الأمثال الإفريقية، وترجمتها، ومن الأعمال التبشـيرية المبكـرة فـي هذا المجال مـا قام به المبشـر جوهانيس Johannes christaller, d ١٨٩٥ مـن جمـعٍ لأكثر من

(١) See: Adom, D., et al. 2021. African Proverbs for Cultural Education: A Step towards Digital Archiving. Journal of History Culture and Art Research, 10(4), pp.44-59.

(٢) George J. et al. African Proverbs, Op., Cit., p.87.

(٣) Hugh Trevor Roper, 1967. The rise of Christian Europe. London: Jarrold & Sons, p.9.

(٤) Mbembe, A. 2015. Decolonising Knowledge and the Question of the Archive, Johannesburg: Wits Institute.

(٥) ينظر: M. Coleman & P. Verster, 2002, Contextualization of the Gospel Among Muslims, ACTA Theologica, (2), p.94-115.

(٣٦٠٠) مثَـل من أمثـال إثنية تـوي Twi بغانا، منذ عام (١٨٧٠م)[١]. وألأعمـال التجميعيـة التي قـام بها عددٌ من المبشرين في مجتمعات سواحلي بشرق إفريقيا، منهم الأب Ernst Damman, d.٢٠٠٣، والباحث Jan Knappert, d.٢٠٠٥، و Albert Scheven، ومنها مجموعة أمثال بمُبارا وماليڤي للأب Mgr. Molin[٢]، وغيرهم كثير[٣].

بعد هذا النشـاط التجميعي للأمثال الإفريقية؛ شـرعَ الاستعماريون في دراسـات مقارنة للأمثال الإفريقية وأمثال «الكتاب المقدّس»، وطرق توظيفها في المشـروع التنصيري. من تلك الدراسـات: دراسـة مقارنة بين «أمثال سليمان» في الكتاب المقدّس وأمثال مجموعات موصي في بوركينافاسـو للباحـث ناري Nare[٤]، ومثلها دراسـة للباحـث انْزامبي Nzambi، في مقارنته بين الأمثال الإنجيلية وأمثال كونغو[٥].

منها أيضاً: دراسـات الباحـث بوبي John Pobee، الذي دعا إلى توظيف المثَـل الإفريقي في التنصير وجعل لغة المثل «جسـراً للعبـور» Passover language، إلى الشـعوب الإفريقية[٦]. ومن الدراسـات التي كانت ترجمةً وصدًى لمثل هذه الدعوة: دراسة للباحث كارينْغا عن الأمثال في إثنية باسا في ليبيريا[٧]. ودراسة باندي عن الأمثال بين إثنية باتُونْغا جنوبيَّ زامْبيا، وطرق توظيفها في التبشـير[٨].

وكتـاب لـلأب Rev. Joshua Kudajie، دعـا فيه إلى توظيـف الأمثال بيـن إثنيـة Ga & Dagme في غانا في التبشـير والتعليم، ويحوي (٣٨٤) مثلاً[٩]. منها أيضاً دراسة الباحث فان هيردن Van Heerden عن توظيف المثل في تدريس الكتاب المقدّس وقراءته[١٠].

هذا؛ وقد أسْدَتْ كثيرٌ من الأعمال الغربية حول الأمثال الإفريقية خدمات جليلة للثقافـة الإفريقية، مثل مجموعة الأب جوهانيـسَ الآنفة الذِّكر لأمثال إثنيـة تُوي في غانا، وصفها الباحث سـانيهْ بـ«مشروع نفيس، وإضاءة فريدة في رؤيا العالم عند أكانْ»[١١].

علـى الرغم من ذلك؛ فـإنَّ أخطاء الترجمة، والتفسـير الإسقاطي للأمثال قد أضرَّ بها، وأخرج الكثير منها من سياقاتها الثقافية، وجعلت معانيها الدقيقة العميقة سطحية ضَحْلة.

على سـبيل المثـال: جاء فـي المثَل عند سـواحلي Haraka haraka haina baraka، ويُترجـم عـادةً بمثَل قريب بالإنجليزيـة Haste makes waste، فكلمة waste الإنجليزية ليست ترجمةً صادقة لـ«بركة» التي تحمل بُعداً عقَديّاً، وتشير إلى أنَّ المثَل السواحلي يعني أنَّ الحركة المنهيَّ عنها هي التي تكون مشـوبةً بعدم الرّضا بقضاء الله وحُكمه.

مثالٌ آخر: تقول يورُبا: Ẹni tí ó bá fẹ́ sèbè, ní kó gbógùn ayà rẹ، أي: (إنَّ مَنْ يرغب في طبخ إدام؛ يستعدُّ لحمل المدقّ)، ويُترجم هذا المثَل بالإنجليزية بقولهـم: You must bear the burden of your actions، وهي ترجمةٌ تُبرز المسؤولية الفردية. بينما يُركِّز المثَلُ الأصل على الاسـتعداد للأمور، ويورد أداةً من أدوات الطبخ هو «المدقّ»، وهذا البُعد الثقافي غائبٌ في الترجمة، بالإضافة إلى تحويل معنى المثَل من الاسـتعداد للأمور إلى المسؤولية الفردية.

---

(١) Sanneh, Lamine. 1993. Encountering the West. Orbis Books. p.82-83.

(٢) Molin. 1960. Recueuil des Proverbes Bambara et Malinke, Les Presses Missionnaires.

(٣) Nordic J. of African Studies, Vol.1 (1992), p.35.

(٤) Nare. 1986. Proverbes Salomoniens et Proverbes Mossi. Frankfurt: Pub. Universitaire Europeennes, xx111/283.

(٥) P.C. Nzambi. Proverbes Bibliques et Proverbes Kongo, Etude Comparative de Proveria, 25-29 et de quelques proverbs Kongo, (Religionswissenschaft 5, Frankfurt a.M. 1991).

(٦) Pobee, Js (1996). Bible Study in Africa: A Passover of Language, Semeia, 73, 161-179, (p164-165).

(٧) Abba Karnga. There is Diversity in Wisdom: 150 Bassa Proverbs from Liberia.

(٨) David K. Mphande. 2001. Tonga Proverbs for Teaching and Preaching, Christian Literary Association in Malawi, CLAIM, Blantyre.

(٩) Joshua K. 2002. Ga and Dagme Proverbs for preaching and Teaching, ASEMPA Press, Ghana.

(١٠) Van Heerden. “The Proverb is the Drum of God”, Scriptura 18 (2002), pp.462-475.

(١١) Sanneh, Lamine. 1993. Encountering the West. Orbis Books. p.82-83.

من الأمثلة أيضـاً: قول مجموعة شـونا (زيمبابوي): Rume rimwe harikombi churu، وتُرجم هذا المثَل إلى الإنجليزيـة بـ No man is an island، وتلك ترجمةٌ بعيـدةٌ عن الأصل الذي يُراد به أنْ (ليـس بمقدور فرد أنْ يحيـط بقرية نمل). وعلى الرغم مـن أنَّ الأصل والترجمة يبرزان ضرورة التعاوُن بين الأفراد؛ فإنَّ في مَثَل شُـونا بُعداً ثقافياً مفقوداً في الترجمة، ألا وهو قرية النمل.

من أمثال مجموعة سوسا قولها: Indlela ibuzwa kwabaphambili، أي: (اسأل عن الطريق مَنْ وصَل إلى مُنتهاه)، ويُضْـرَب للحثّ على التعلُّم مـن أصحاب الخبرة والتجربة. تُرجِمَ هذا المثَل بـ Experience is the best teacher، أي: (نِعْمَ المعلِّمُ التجربة). فالمثَل في أصله يحثُّ على طلب العلم والحكمة من كبار السنّ كما هو معروفٌ في الثقافة الإفريقية. أمَّا الترجمة الإنجليزية فيحصُر وسـيلة طلب العلم في التجربـة الذاتية الفردية، وتلك نزعةٌ غربية غير معروفة لدى مجموعة سوسا.

ممـا تقدَّم؛ يتبيَّـن أنَّ الأمثال قد كانـت أكثر الأنواع الأدبية التي شـغلت الاستعماريين بإفريقيا؛ لِمَا وجدوا فيها من وَفْرة لدى كل مجموعة ثقافية، ولِمَا فوجِئوا به من عُمق في الرؤى الفلسـفية في الأمثال، وقد خدَمَ الاسـتعماريون الأمثال الإفريقية بالجمع والتدوين، ولكنَّهم في الوقت نفسه قد أضروا بها بإعطائهم لأنفسـهم الحـقَّ في ترجمة تلك الأمثال وتفسيرها دون رجوع إلى المجتمعات المحلية.

وفوق ذلك؛ فإنَّ كثيراً من الاسـتعماريين الذين شُغِلوا بالأمثال بإفريقيا قد تعمَّدوا تشويهها وإخلاءها من أبعادها الفلسـفية والثقافية؛ رغبةً منهم في تأكيد التفوُّق الغربي، وشرعية المزاعم التي قام عليها المشروع الاستعماري.

المحور الخامس: إزالـة الكولونيالية عن المثل الإفريقي:

تأتـي جهودُ إزالة الاسـتعمار عن الأمثـال الإفريقية ضمن مشـروع كُلِّي لمنظومة العلـوم والمعارف الإفريقية، وفي قطاعات مختلفة تأثَّرت- ولا تزال- بالاسـتعمار، مثل: التعليـم، والأدب، والإعلام، والسياسـة، والاقتصاد... إلخ، وهي جهودٌ تهدفُ لتفكيك الأفكار الاسـتعمارية التي شابَتْ العلوم والمعارف الإفريقية؛ حين صِيغتْ تلك المعارف تحت مظلَّة اسـتعمارية كان هدفُ أصحابها الترويج لفكرة التفوُّق الغربي، والاستخفاف بكلّ مَظهر حضاريٍّ بإفريقيا، حتى يتمَّ تأكيدُ ما زعمَته دول الاسـتعمار الغربي لنفسها من «مهمّة حضارية» بإفريقيا.

أمَّا عن الأمثال خاصَّةً؛ فإنَّ محاولات تفكيك الاستعمار عنها تنطلِقُ من حقيقة أنَّ المثَل، بوصفه أدباً شفويّاً، مُتجذِّرٌ بعمقٍ في النسـيج المعرفي والثقافي والتاريخي للمجتمعات الإفريقية. على الرغم من ذلك؛ فإنَّ الاستعماريين قد أعطَوا لأنفسـهم حقَّ جمع الأمثال الإفريقية وترجَمتها وتفسيرها من خلال الأطر المعرفيـة الغربية، وقد أدَّى هذا التصرف المتعمَّـد إلى مَسْـخ الأمثـال الإفريقيّة وطمـس معانيها الأصيلة، وإخضاعها قَسْراً لمفاهيم مركزية أوروبية، وساهَمَ ذلـك في تعزيز الصُّـوَر النمطية التي أراد الاسـتعماريون إلصاقَها بالمجتمعات الإفريقية.

إنَّ مهمَّة إزالة الاسـتعمار عن الأمثـال، أو غيرها من النُّظـم الإفريقية، تسـعى لمعالجة التحيُّـزات التاريخية الغربية، واسـتعادة الأمثال بوصفهـا أدواتٍ ثقافية أصيلة لأنظمة المعرفة الإفريقية.

هنا يقترح الباحثون خطواتٍ أساسية لإزالة الاستعمار عن الأمثال الإفريقية، منها:

١- استعادة اللغة الأصلية للمَثل:

إذا كانـت الأعمال الاسـتعمارية قـد صاغت الأمثال الإفريقيـة ضمن تقاليد لغوية وفلسـفية غربية؛ فإنَّ جهود الباحثيـن في هـذا المسـتوى تنْصبُّ فـي الحفاظ على الأمثال بلغاتها الأصليـة؛ لضمان الاحتفاظ بثرائها الدلالي والثقافي، فلغة المَثَل وتركيبه مجالٌ معقَّد؛ لعمق جذور المَثَل الثقافية، وبناءً على ذلـك؛ فإنَّ ترجمة المَثَل بأمانة صعبة. أضِفْ إلى ذلـك أنَّ اللغات الإفريقية فـي جُلِّها تصويرية، ومفرداتهـا إيحائية، وحتى إذا لجـأ المترجمُ إلى الترجمة الحرفية، حرصـاً على الضَّبط، فـإنَّ الترجمة يصعب أن تكون صادقة؛ لوجود «ماورائيَّات» كثيرة تضافرت في تشكيل المَثَل، كالخبرات الشعبية مع ظواهر الكون وحقائق الحياة، والظُّروف الاجتماعية والتاريخية، وتشعُّب التقاليد الشفوية التي صِيـغَ المثَلُ في إطارها... كلُّ تلـك العناصر يصعُبُ الحفاظ عليها أو التحكُّم فيها عند إرادة نقل المَثَل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى[1].

٢- تفنيد الصور النمطية الثقافية:

خضـعَ كثيـرٌ مـن الأمثـال الإفريقية علـى أيدي

(١) Tiko, Iyamu. The Role of African Proverbs, Op. Cit., p.486.

الاستعماريين لتفسيرات مُغرضة، تعزِّزُ الصُّوَر النمطية التي رَوَّجَ لها الاستعماريون عن المجتمعات الإفريقية، مثل الزعم بأنها «بدائية، هَمَجية»، وعليه تمَّ تفسيرُ أمثالٍ معيَّنة لتعزيز هذه المزاعم، وتثبيت التفوُّق الغربي.

ويتلخص الفعل المضادُّ لدى الباحثين الآن في إعادة تفسير تلك الأمثال ووضعها في سياقاتها الثقافية الصحيحة، وينطلقُ هذا التفسيرُ من الاستعانة بالمجتمعات الإفريقية المحلية؛ لضمان التفسير الصحيح.

٣- الإدماج الأدبي والإعلامي والفني:

من خطوات إزالة الاستعمار المهمَّة؛ أن يهبّ الأدباء والإعلاميُّون والفنَّانون إلى تكثيف الأمثال وغيرها من عناصر الثقافة الإفريقية في أعمالهم الأدبية والفنية، من قصص، وروايات ومسرحيات، وأشعار، وبرامج تلفزيونية، وهذا ما دعا إليه المفكر علي مزروعي (ت٢٠١٤م)، حين حدَّد خمس خطوات إستراتيجية لإزالة الاستعمار، وسمَّى تلك الخطوة بـ Indigenisation، أي: أفْرَقَة العلوم والفنون والسياسة وغيرها[١].

ومن مشاهير الأدباء الذين ضمَّنوا أعمالهم الأدبية نماذج كثيرةً من الأمثال: تْشِنُوَا أشيبي، ونْغوجي واثْيونْغو، وأحمد كُروما[٢]؛ حيث نجد عند أولئك وأمثالهم من الأدباء استلهاماً عميقاً للأمثال والأساطير وعناصر التقاليد الشفهية لتأدية وظائف فنية جديدة.

٤- إدماج الأمثال في المناهج التعليمية:

يرى الباحثون أنَّ دمج الأمثال في السياقات التعليمية يُسهم بفاعلية في إزالة الاستعمار، وذلك عن طريق تحدي هَيْمَنة السَّرديّات الأوروبية الطاغية على أنظمة التعليم بالقارة، ويرى أولئك أنَّ نشاط إزالة الاستعمار ينبغي ألا ينحصرَ في تكثيف الأمثال في المناهج التعليمية فحسب؛ وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى جعل الثقافة الإفريقية مركزية في المنظومة التعليمية[٣].

٥- إعادة أرشفة الأمثال:

إنَّ جهود جمع الأمثال الإفريقية وتوثيقها من لَدُن الاستعماريين لم تكن أمينة؛ إذْ شابَتْها الانتقائية، وربَّما الكثيرُ من التزوير والوضع، وعليه؛ فلابدَّ من التواصُل مع المجتمعات الأصلية؛ للتحقُّق من صحَّة كثيرٍ من الأمثال، وكشف التحيُّزات في جمعها وتفسيرها، وهُنا وُجِدت محاولاتٌ أرشيفية رقمية للأمثال، ولكنَّها في الغالب فردية.

خاتمة:

لقد حاولت الدراسة الحالية، عبر خمسة محاور أساسية، استكشاف مكانة الأمثال الشعبية في المجتمعات الإفريقية؛ فوقفت عند مفهوم «المَثَل» في بعض اللغات الإفريقية؛ وتبيَّن في استعراض اشتقاقات المفردات الدالة على المَثَل في بعض تلك اللغات ومعانيها أنَّ بالثقافات الإفريقية رؤيةً واضحةً لطبيعة المَثَل باعتباره كلاماً رمزيّاً عميقاً.

كما تبيَّن أنَّ الأمثال الشعبية ليست مجرَّد تعبير لغويٍّ، وإنَّما هي مُكوِّنٌ أساسيٌّ في البناء الفكري للمجتمعات الإفريقية؛ إذْ تُمثِّل البنية العميقة التي تُشكِّل رؤيا العالَم لدى الأفارقة، وتُكوِّنُ المبادئ الأساسية، وتُحدِّدُ الرؤى والتوجُّهات التي تراكَمت في المجتمع الإفريقي عبر الأجيال. عليه؛ فإنَّ المجتمعات الإفريقية تولي المَثَل اهتماماً كبيراً، إذ له تأثيرٌ عميقٌ على الفرد والمجتمع في مواقف الحياة ومراحلها المختلفة.

خلُصت الدراسة الحالية أيضاً إلى أنَّ للمَثَل وظائفَ متعددةً في المجتمعات الإفريقية، وبها رُؤًى عميقةٌ عن الكون والحياة والإله، وعن العلاقات الإنسانية، تكشفُ ما في الفلسفة الغربية، وفي الطروحات الاستعمارية من مغالطاتٍ وقِصَر نظر. لذلك؛ فإنَّ الاستعماريين حين فوجئوا بتلك النماذج من التفكير الفلسفي العميق بإفريقيا؛ كان ردُّهم تشويهها وإخضاعها لرؤاهم الغربية القاصرة.

من هذا المنطلق؛ فإنَّ مهمَّة إزالة الاستعمار عن المثَل الإفريقي غدَتْ لزاماً؛ لرد الأمثال إلى أصولها، وبعث القوى الحيَوية فيها، حتى تستعيد المجتمعات الإفريقية هُويَّتها، وتشارك في إمداد الفلسفة العالمية بنصيبها من المشترك البَشري في الحكمة، وتحقيق السَّلام ■

---

(١) Bwesigye M. 2014. 5 strategies for de-Westernising globalization, by Ali Mazrui. Thisisafrica.

(٢) See: Funmilola K. Megbowon. 2022. Decolonization through indigenization in African Literature. IFE Pychologia. Vol.20 (4). 20363-20374.

(٣) Heleta, S. 2018. Decolonizing knowledge in south Africa: dismantling the 'pedagogy of biglies'. Ufahamu a Journal of African Studies, 40(2).